«عودة الألماني الى رشده» لرشيد الضعيف:

رجل حين كان امرأة

محمود عبد الغني*

■ «عودة الألماني الى رشده» لرشيد الضعيف كتاب مختلف لأننا لم نقرا كتابا مثله في جغرافية النص الأدبي العربي الحديث.يحكي الكتاب عن كاتب ألماني شاب اسمه يواخيم هلفر عاش حياة مثلية صرفة دامت عشرين عاما، قضاها مع العجوز «نون» في بيت واحد، يقتسمان فيه سريرا واحدا.رجلان في سرير واحد، هذا هو الاختلاف الأخلاقي بين الحداثة الغربية وبين ما نحن عليه نحن العرب. وهو موضوع سبق ان عالجه رشيد في روايته «تصطفل ميريل ستريب».

يؤكد الكاتب في الصفحة 10 من «عودة الألماني ....».. أن الفراش «هو المكان الذي يجري عليه الصراع الفعلي بين الشرق والغرب. ان الفراش جبهة من الجبهات المفتوحة بين «التقليد» العربي والحداثة الغربية». كما أن المدينة الغربية جبهة أخرى من جبهات هذا الصراع. فيواخيم يعيش في برلين، المدينة التي تجري فيها سنويا اكبر مظاهرة مثلية. وهو أمر يثير سخرية العرب. أما رشيد الضعيف فيعيش في بيروت، المدينة العربية التي أثبتت جنونها على أكثر من صعيد.

التقى الكاتب العربي بنظيره الألماني في اطار برنامج «ديوان شرق ـ غرب» الذي مولته الحكومة الألمانية ونظمه معهد غوته و مؤسسات ألمانية أخرى. ويقتضي هذا البرنامج بان يزور كاتب من بلد عربي أو اسلامي برلين لمدة ستة أسابيع يجرى خلالها نشاطات مع كاتب ألماني، ثم يزور الكاتب الألماني بلد الكاتب العربي لمدة ثلاثة أسابيع، ويجري معه نشاطات مشابهة، وتكون هذه مناسبة ليتعرف الواحد منهما الى الأخر عن قرب. والهدف من هذا البرنامج الحوار الثقافي بين الكتاب بخاصة. وقد سبقت تجربة رشيد الضعيف تجارب كتاب آخرين، لكننا لم نقرا نصوصهم . والسبب يعود ربما الى كون الضعيف يهتم كثيرا بأمور الأخلاق، والأخلاق الجنسية بالتحديد، ويكتب عن ذلك كما يصرح فهو مهتم بالعلاقة بين الرجل والمرأة، والزواج والطلاق والأولاد والعزوبة والمساكنة والجنس والعاطفة، والربط بينهما، وما الى ذلك...». كل هذه المواضيع تهمه كثيرا ويراقب مجرياتها في العالم ما استطاع، ويتتبع أخبارها، كما يتتبع أخبار المثلية بشكل عام، متابعة من لا يعنيه الأمر مباشرة. فهو من بيئة تحتفل بالذكورة وتحتفي بها، «ويحلو لها أن تفخر بها كلما سنحت مناسبة»(ص11).

حدس الضعيف منذ البداية أن مشاركته رفقة كاتب ألماني في برنامج «ديوان شرق ـ غرب» ستكون استثنائية، منذ البداية، عندما تصل به مدير البرنامج السيد «توماس هارتمن»، من ألمانيا ليخبره بأنه تم اختيار الكاتب الذي سيعمل معه طوال اقامته في برلين. اعلمه باسم الكاتب، وبعمره، تسع وثلاثين سنة، وبمؤلفاته ونشاطاته.لكن الشيء الذي لفت الضعيف هو اصرار مدير البرنامج على اعلامه بان الكاتب الألماني مثلي، لاكمال معلوماته عنه. وقد لاحظ الضعيف أن يصوت السيد توماس وهو يكلمه على هذه النقطة، شيء من الحرج. والسبب في الادلاء بهذه المعلومة يعود الى كون الضعيف عربي، والى أن العرب يرفضون القبول بالمثلية كحق من حقوق الانسان، كما هو حاصل منذ مدة في ألمانيا. والشيء الأكثر احراجا في هذه التجربة هو أن هذا الكاتب المثلي سيزور بيروت ليقوم بنفس النشاطات التي قام بها ضيفه العربي. وهذا ما قد يشكل بالنسبة الى عملهما اعاقة أو مشكلة. خصوصا وان المثلية عند العرب والمسلمين تعتبر عملا مشينا يجب قمعه، وجرما يحاسب عليه القانون. فالمثليون يسمون شاذين، والممارسة المثلية هي اتيان بخلاف الطبيعة ونحن نعرف أن رشيد الضعيف كاتب طليعي وحداثي يأخذ مسافة من قناعات الجماعة التي ينتمي اليها ومن مفاهيمها وايديولوجيتها، لكن مفاهيم هذه الجماعة تتسلل اليه وتفعل فعلها.

والشيء المحير في هذا الكتاب انه يبوح بما جرى رغم انه أمر شخصي جدا وحميم، وبالتالي من المحرج والمزعج جدا كتابة ونشر ما جرى. لكن الضعيف غامر وكتب ونشر مهما تكون النتيجة وقد يكون ما رأيت غير ما جرى في الحقيقة لأنني لابد أنني قرأته بالأبجدية التي اعرفها، ورايته بعيني نفسي وسمعته بأذني. لكنني انتصرت على هذا الشعور وقررت تنفيذ الاتفاق مهما تكن الأخطاء التي يمكن أن أقع فيها» (ص 98 ـ 91). ووسط كل ذلك لم تكن ليواخيم الا وصية واحدة الا تتم الاساءة لامرأة ألمانية تدعى «انغريد» تعرف عليها يواخيم في بيروت وهو في ضيافة الضعيف، تنفيذا للشق الثاني من البرنامج، فأصبحت صديقته، ثم حبيبته التي رزق منها بطفلة أطلقا عليها اسما عربيا، وبذلك كانت عودة الألماني الى رشده. الا أن قدر يواخيم هو أن يبقى مثليا الى الأبد. أي انه حافظ على علاقته بـ«نون»، ويحاول اقامة علاقة متينة مع فتى، ويصطاد في الوقت نفسه رجالا يشبهون المثلي البيروتي صادر الذي عاش معه مغامرات في مدينة بيروت.

كل هذه الأشياء كتاب «عودة الألماني الى رشده» برغبة عارمة، بهدف أن «تتضح الأمور ما بين العرب و الألمان»(ص 91).

لم يمانع يواخيم في نشر هذه التجربة الفريدة. التي تجاوزت، في جزء يسير، مع قصص وحكايات مثليين آخرين تابع الكاتب العربي أخبارهم. مثل ما اخبره صديقه ش.م. عن أن شاربيه استفزا المستعرب الفرنسي ج.ب.ت. الذي مات بالسيدا أواسط الثمانينات من القرن الماضي. كان هذا المستعرب المثلي حاد الذكاء، واسع الثقافة، وكان في الوقت نفسه حاد الرغبة في الجماع لا يوقفه حاجز عندما يشعر بالحاجة الى رجل.

كان يجرؤ على التنقل في الليل و النهار في بيروت الغربية التي كانت تسودها شريعة الغاب وتعمها الفوضى المطلقة، للبحث عن فريسة، أو بالأحرى عن ذئب يفترسه. كان يدهشني حين كنت ألتقيه ويخبرني أين كان في الأمس أو منذ أيام، وأي حواجز أمنية تخطى وأية مخاطر جابهته. كنت لا اصدق. كان اذا مضى عليه يومان بدون أن يشبع رغبته ينفجر(ص 14).

رشيد الضعيف

ذهب الضعيف الى برلين للقاء الكاتب الألماني المثلي، ومعرفته بالمثليين ليست عميقة، لا تتعدى بعض التجارب التي عاشها، كتلك التي جابهته أثناء عمله مع المترجم الفرنسي المثلي "ف.ق" على ترجمة احد النصوص الى اللغة الفرنسية. فتجمعت لديه عن المثليين، الذين يرفضهم، معلومات سلبية. فمثلا، أثناء الخوف الجماعي من الايدز أواخر الثمانينات تردد كثيرا أن خطر انتقال الفيروس بالمعاشرة المثلية يزداد كثيرا، وان انتشار الفيروس في وسط المثليين هو انتشار مخيف، لان نسبة المعاشرة عند المثليين أكثر بكثير مما هي عليه عند غيرهم، وان المثلي يغير شركاءه بمعدل عال جدا.

طيلة مرافقة الكاتب الألماني لنظيره العربي، عرف هذا الأخير معنى أن يكون الانسان فتاة أو امرأة، ومعنى أن يكون مبعث أثارة ومركز اهتمام جنسي، وهي أمور تخطر له لأول مرة. فاضطر الى اخفاء شعر صدره ويديه، لان الشعر مركز اثارة عند المثليين. فكان يضطر الى اخفاء كل منبع أثارة، كما تشد المرأة الجالسة فستانها لتخفي ما استطاعت من فخذيها. المرأة شيء مختلف عن الرجل، هذا ما حضر في ذهني وقتذاك، هذا ما اكتشفته فجأة بهذه المناسبة(ص 17).

انها تجربة مليئة بالجدليات. يعيشها الواحد بعقليتين مختلفتين. تجربة محرجة.يحكي الضعيف انه عندما كان ينتظر «يواخيم» في «الفيسن شافت كوليغ» التقى المفكر المصري المنفي نصر حامد أبو زيد، فاخبره انه في ألمانيا بدعوة من برنامج «ديوان شرق ـ غرب»، وحين سأله عن الكاتب الذي سيعمل معه ،أجابه بأنه كاتب مثلي. لكنه لم يشأ أن يقول «لوطي» لأنها تحمل دلالات سلبية، فاستعمل كلمة «مثلي» الحيادية المستحدثة في اللغة العربية. لكن نصر أبو زيد سمعه يلفظ «مثلي» لا «مثلي» أي بدون الشدة على الياء، فسأله مستفسرا: مثلك؟ فسارع الى النفي والتوضيح «مسارعة من يداهمه الرجس والدنس. أردت فورا الا يبقى في ذهنه بقية من شك"(ص19).

اخبر يواخيم رشيد الضعيف عن قصته كاملة، منذ ان تعرف على صديقه «نون» في جنوب فرنسا، الذي يكبره بثمانية وثلاثين عاما. كان عمر «يواخيم» تقريبا تسعة عشر عاما، وكان عمر صديقه سبعة وخمسين عاما. ولم يفترقا منذ ذلك التاريخ، اي منذ عشرين عاما، وهما يسكنان في بيت واحد وينامان في فراش واحد ويتشاركان كل شيء، كرجل وامراة زوجين. ولم يؤدخلاف بينهما الى الطلاق لانهما في رباط حر اقوى من الرباط القانوني او المقدس. لقد التقيا. اي ان كل واحد منهما التقى نصفه الآخر المكمل له. كما يقال عند الكلام عن رجل وامراة منسجمين تمام الانسجام (ص 19).

لقد توفق رشيد الضعيف في تقديم بورتريهات جريئة عن المثليين في المانيا وبيروت، عن عودة الرشد اليهم. عن تراجعهم عن رشدهم وعودتهم الى قدرهم الطبيعي. دون مراعاة لنظام البديهيات المعيارية داخل المجتمع المقام على ثنوية جنسية صارمة، وعلى مركزية الذكورة والتغاير الجنسي، خصوصا في المجتمعات التي تعاقب كل مثلي على مزاوجته الجنسية، فيطرد من دائرة الفحولة كل من لا يستحق هويته الجندرية ومنزلته كذكر حر. ولعل ذلك يعود في الثقافة العربية الاسلامية الى ان الله خلق الانسان، كما جاء في القران، وايضا خلق «الذكر والانثى». وبذلك يكون بوح رشيد الضعيف اقرب الى المذكرات الحميمية منه الى كتاب يراهن على قارئ وعلى نظام التداول. كتاب يحكي عن رجل الماني حين كان امراة.

* شاعر من المغرب

القاص الفلسطيني زياد خداش:

في ثقافتنا المريضة على المرأة ان تعجب بعقل الرجل لا بشعر صدره!

رام الله ـ «القدس العربي»:

قال عن نفسه (ولدت في زهرة المدائن بوابة السماء ومنارة الدى القدس عام 1964، ومن حيث أنني قد تورطت في الحياة استمريت نحو الغوص عميقا في بحر المدن والشوارع والحارات والصفيح المقاوم لأشعة الشمس وغبار الأمنيات، درست حتى الثانوية في وطني الجميل ولأنني لا أحب الحدود فواصل الرحم ركضت جريا الى الأردن الهادئة. ومن حليب جامعة اليرموك استقيت اللغة العربية اللذيذة حتى ارتويت وتخرجت منها في عام 1989م وبعدها سارت بي الخطى نحو بوابات المدارس حتى استقر أمري في احد مدارس رام الله ومن هنا بدأت....).

قلب طائر يبوح بهمسات المقاهي، يعتق ذاته فتحلق بين أبنية القدس وأحجارها، يقلب التاريخ ويعيد للجغرافيا خصائصها اللامنتهية، يبحر عبر اللاوعي واللامكان، طقوسه وأجواؤه الكتابية أمطرت بالحب له وأرعدت بالكره ضده.

في هذا الحوار يكشف زياد خداش بعضا من جوانب فكره فماذا يقول:

■ من هو زياد خداش بين المداد والقرطاس؟

■ أنا روح متورطة في البوح الحميم الذي لا يعترف بالسقوف من عيب وحرام، روح مجنونة مهمتها الوحيدة هي ترحيل عالم الاحلام الى عالم الحقائق والوقائع، بث نوع من الفوضى الجميلة والعنيفة التي تهدف الى خلخلة مفاهيمنا وارباك جمودنا، الانحناء لثقافة السؤال الغائبة بقوة في حياتنا بكافة جوانبها وخاصة الجانب العقيدي، احترام الغريزة لكونها ضحية شرائعنا وحساباتنا الكاذبة ،ومطية سهلة لنفاقنا وخوفنا. هذا هو أنا، افتخر بكوني كذلك، اذ لا استطيع ان اكون صدى جاهزا لمفاهيم مجتمعي ومرآة مطيعة للتفكير السائد، النقاد والقراء هم وحدهم الذين يحكمون على مدى نجاحي في تقديم نمط تفكيري من خلال الفن القصصي.

■ يقول زياد خداش في احدى قصصه (في الطريق المتعرج، المليء بالحصى المبعثر والحجارة الساقطة من السناسل المهدمة بقايا النفايات الجافة، مشيت،انه يوم خريفي حيث كل شيء يتخلى عن أحبائه لصالح موت خفيف، خطواتي تذهب الى اللامكان، اللازمان) أين أنت بين اللازمان واللامكان؟

■ دائما كنت مؤمنا باني اعيش في كل العصور، وفي كل الامكنة وان مخيلتي الحبيبة العدوة تساعدني في اغتيال الحاضر بعد الاعتذار له بأدب او أسره لفترة في سجن ما فتحته خصيصا له في غرفة أخوتي المعاقين حيث ينهشونه هناك بالصراخ والركل والقضم، تختفي رام الله ويختفي اصدقائي واهلي ومدرستي، واصبح محاربا يبوسيا او او راهبا يونانيا، حين اقرأ كتابا عن الاندلس، اتحول فورا الى شاب يعمل بستانيا في حديقة الامير ابو عبد الله الصغير، وحين تدخل امي غرفتي حاملة الشاي تستغرب مني فأنا غير موجود فأسمعها تهمس لنفسها اين ذهب؟ كان هنا قبل قليل. قبل أيام ذهبت الى أريحا في رحلة مع طلابي وبينما كنا نتجول في ساحات قصر هشام، وفي لحظة ما دهش طلابي لغيابي، بحثوا عني في كل مكان، وابلغوا الشرطة، وفجأة استغربت منهم قائلا: ما بالكم؟ كنت هنا لم اغادر القصر، انتم الذين اختفيتم.

التاريخ القديم يسحرني امكنة وزمانا، فأغيب عن وعيي واسافر فيه عبره، احيانا افقد ذاكرتي تماما فلا اعود اعرف من انا ولأي عصر انتمي، هذا الاشتباك في العصور داخلي يسبب لي الدوار الجميل لكنه يجعلني اهبل في عيون الناس، ويا مرحبا بهذا الهبل.

■ في مقالك (جسد المرأة: غابة من الأسئلة و عاصفة من الحنين) كنت محاميا بارعا تدافع عن جسد المرأة وثقافتها وتضع أصناف الذكورة وأشكالها من الأدباء الى مساحي الأحذية في قفص الاتهام، وقد طرحت ـ خلال مقالك ـ مجموعة من الأسئلة لم تجب عنها وكأنك تريدها مفتاحا لمزيد من الطرح كقولك هل تستطيع المرأة ان تكون دون جسدها؟ وقولك هل تستطيع المرأة ان تكون مصدر ابهاج للرجل لو كانت من غير جسد انثوي؟ أود هنا ان أوجه لك الأسئلة ذاتها في قالب ذكوري فأقول:

هل يستطيع الرجل أن يكون دون جسد و هل يستطيع الرجل ان يقدم مادة اغراء وابهاج للمرأة بعيدا عن الجسد الذكوري؟

■ المخجل والمثير للاستياء في ثقافتنا العربية انها ربتنا على اعتبار ان الرجل هو عقله وذهنه و ان المرأة هي جسدها، والدليل على ذلك هو جسد نانسي عجرم الذي هو سبب شهرتها واحتلالها مركزا مهما في حياة واحلام واجساد شباننا وشاباتنا في العالم العربي، ليس صوت نانسي أو كلام اغنياتها من يجذب انه جسدها وحركاته، تخيلي هذا المشهد : صوت نانسي مركب على جسد سناء جميل، مع احترامي الشديد لسناء ولقيمتها الفنية وعبقريتها الادائية هل ستجدين نفس الادهاش والجنون؟ طبعا هذا لا يعني اني ضد جمال الجسد والافتنان والجنون به لكني ضد تغييب دور العقل في المرأة والتركيز على الجمال الجسدي، هذا موضوع يسبب لي الما كبيرا، طبعا انا ارفض هذه النظرية، واحاول ان اطبق في سلوكي الشخصي، ما يعكس رفضي لها، في مرات كثيرة افشل واعود الى تربيتي الرسمية واتورط في تسلطات ذكورية مقيتة لكني سرعان ما اتراجع مشدودا الى تدريب صارم امارسه مع ذاتي.

في ثقافتنا المريضة، لا يحتاج الرجل الى جسد، لان المرأة العربية نفسها حسب تربية هذه الثقافة المجرمة لا يجب عليها ان تشتهي شعر صدر رجل مثلا، عليها ان تعجب بعقله وتفكيره ورجولته الممثلة في مواقفه وشجاعته.

■ يوجه زياد خداش خطابه للمرأة الفلسطينية فيقول (أنا بانتظار المرأة الفلسطينية التي تكتب نفسها، احتجاجاتها، اقتراحاتها، فرحها وفخرها بجسدها، تحللها من السقوف وتحطيمها للجدران، طالما تمنيت شخصياً أن أكون أنثى لأفجر أسراري وحنقي وسخريتي وثراء تناقضاتي وامتداد أحاسيسي، وصمود المرأة الفلسطينية تحت الاحتلالين، السياسي والاجتماعي يعطيها أصداء هائلة للتعبير والتحليق) ألا ترى أن المجتمع الفلسطيني مسؤول عن ذلك؟

■ طبعا المجتمع مسؤول عن ذلك ولكن اذا كانت هناك امرأة تريد ان تصبح كاتبة فعليها ان تخاطر وتغامر لان الكتابة ليست لعبة وليست طريقاً سهلاً للفضفضة فقط والشكوى من مظالم الرجال من تريد ان تشكو ظلم رجل عليها تقديم بلاغ الى مركز الشرطة وليس الى عالم الادب والكتابة، فالادب ليس وزارة لحل مشاكل الحياة الزوجية وليس ساعي بريد بين العشاق.

■ اختلف النقاد مؤخرا حول كتاباتك خاصة ما كتبته عن مقاهي رام الله، فهاجمك البعض بينما أيدك البعض الآخر..... فماذا تقول لزياد خداش الواقع بين مطرقة الرفض وسندان التأييد؟

■ أحب من يكره ما اكتب لكنه يفسر ذلك بأسباب فنية وفكرية، واكره من يحب ما اكتب ولا يقول لي لماذا؟ هناك امرأة قالت لي يوما لا احب شكلك ولا احب نصوصك، قالت ذلك لسبب بسيط هو اني لم استطع ان احبها، العلاقات تتحكم في اغلب تقييمات القراء، الناس الذين لا يعرفونني شخصيا يحبون بقوة ما اكتب، اصدقائي حولي لا يندهشون لما اكتب، لان القرب حجاب كما قال لي يوما ما باسم النبريص. انا مثلا كنت معجبا بنصوص شعراء فلسطينيين كثيرين اثناء وجودهم بالمنفى، حين عادوا وتعرفت عليهم شككت في حقيقة انهم هم انفسهم الذين كنت اقرأ لهم، محمود درويش ذكي جدا فهو يعرف تماما، ان الظهور في المقاهي يسبب تلك النظرة العادية لشعره، معه حق في ذلك، واعتقد ان ظهور سميح القاسم السهل في المنابر والامسيات وسرعة وسهولة الوصول اليه سبب بهوت وخفوت التجاوب مع ما يكتب، الاختباء الفيزيائي ضروروي للكاتب. تخيلوا مثلا ان محمود درويش جالس في مقهى رام الله مع مهيب البرغوثي، يتصايحان في نقاش صاخب حول قصيدة النثر، ويضربان بعضهما مزاحا، ويضحكان بصوت عال، سيتحول درويش بعدها شعرا وانسانا الى كأس شاي صباحي نشربه بملل واعتياد شديدين، بلا طعم.

■ وأنت معلم ومرب للمرحلة الاعدادية، وقاص تمتلك من أدوات اللغة ما يجعلك اباحيا بعض الشيء، ألا تشعر بتناقض ازاء ذلك؟

■ بالعكس تماما يا ايمان، فانا اشعر اني احقق بذلك ردا طبيعيا على الشخص الرتيب الذي امارسه مضطرا لاعيش، في نصوصي انتقم من زياد خداش المطيع العادي الذي يستجيب للاوامر، ويأتي الى المدرسة في اوقات محددة وهو الذي يدعي انه ضد التحديد والتعين والتأبد، تستطيعين ان تقولي انني لو لم اكن مدرسا لكانت لغتي اكثر احتشاما، ان مهنتي الرتيبة تحتم علي ان اسافر ذهنيا الى ابعد منها واعمق، ثم اني لا انتقم فقط بالكتابة من مهنتي، انا اقوم بتدريس طلابي اساليب حب اجسادهم واحترام مشاعرهم والاصغاء باحترام لصوت الرغبات فيهم، اين التناقض؟ بالعكس انا احس اني سعيد بمهنتي احيانا لانها تتيح لي ان استغلها للوصول الى الاذهان الغضة، وزرع تعاليم العصيان المجنونة هناك في التربة الطرية، ثم ما هو مفهومك للاباحية؟ هل الحديث عن الجنس اباحية؟ ابدا انه واجب وضرورة، علينا ان نوضح لطلابنا وابنائنا ما هو الجنس؟ ولم هو لذيذ وضروري وانساني، وذلك قبل ان يعرفوه من مصادر مشبوهة ومنحرفة.

■ لو طلبت وزارة التربية والتعليم من زياد خداش اضافة نص واحد من نصوصه الأدبية لاعتماده كجزء من مقرر مادة الأدب فأيها ستختار؟

■ اولا لو حدث ذلك فسأكون متأكدا من أنني احلم، ساجيب على سؤالك وكأنه حلم بالقول ان الوزارة لن تجن وتفعل ذلك حتى في الحلم، سأحلم اني اختار نص «دوائر اختي الناقصة» لانه حميمي وانساني وعميق وحزين، اعتقد اني خذلتك يا ايمان، فأنت كنت تتوقعين ان اختار نصا اباحيا، اليس كذلك؟ هاهاها، هذا هو انا احب ان افاجئ دائما محاوري بعكس ما ينتظر.

■ في نصك (امرأة ومدينة) خلطت أوراق التاريخ وعصفت بالموروث وكأنك تبحث عن شمس الحقيقة فهل وجدتها؟

■ في الفنون نحن لا نجد حقائق، نحن نجد اسئلة، الاجابات والحقائق تجدينها في العلوم والجغرافيا مثلا والرياضيات، الفنون تأخذنا في متاهات حلوة الى عوالم اخرى مصنوعة من زبد ورمل وغيوم، كأننا نحلم العالم، لا نعيشه او هو يحلمنا، لو وجدت هناك جوابا وحقيقة لما كنت قد كتبت نصا.

■ ماذا تعني الأسماء التالية لزياد خداش؟

1ـ ابن رشد

■ ابن رشد هو استاذ في العصيان والتفكير المختلف وهو اول من نادى بعدم الخوف من الفلسفة، واعتبرها لا تتناقض مع الشريعة، وانا احترمه واحبه واتخيله دائما غارقا في كتاب، معروف عنه انه لم يتوقف عن الكتابة ابدا الا في ليلتين: ليلة زواجه وليلة موت ابيه.

2ـ نادية انجومان

■ نادية انجومان: هي جرح في قلبي، مفتوح دائما، احس اني عرفت هذه المرأة في زمان بعيد.

ارتعبت من قتلها على يد زوجها المتخلف، فقط لانها كانت تكتب الشعر، امضيت اشهرا وانا احاول ان افهم هذا المبرر لموت فظيع، لم اصل لشيء، فقط كنت اتألم واتألم.

3ـ مصطفى خداش

■ أبي: هل قلت ابي؟ هو سببي.

زياد خداش (القدس العربي)

التقته: إيمان الوزير

وطن الفقيد ومنفى بارد

عبد الكريم كاظم*

■ في العراق، وفي وسط العاصمة بغداد حيث لم تتضح بعد كراديس القتلى بشكل منتظم، كان الشاعر يعتلي صهوة قصيدته البيضاء، بينما يجللّه ثوب أسود فضفاض ويرى من جهة الرصافة خوذة امريكية حمراء ومن جهة الكرخ كابوس وعمامة سوداء، كان يقف بين حشد المذهولين ذلك الشاعر في سنته الثانية والخمسين، نزل من القطار القادم من كربلاء مع قصيدته، وكان دمٌ قد تيبس على أنفه، وبان واضحاً أثر عدّة ضربات شعرية من سيف المنفى تحولت الى جروح، كلمات وقصائد تقول: (صبراً للطبائع الأربع، وكان لا يزال يرتدي حنينه الأبيض من قماش الوطن / الكفن، ثم قال لنا: الفاجعة ستحل بعد قليل، انتظروا قليلاً...

لقد صمت كل شيء من حوله، ولم يعد يسمع سوى صوت قصيدته الوحيد الذي انطلق متحشرجاً مكبوتاً ومخلوطاً بأنين واهن... بلادي.. بلادي

و هو يفكر بشمس نيسان الساطعة ونيسان (أقسى الشهور) كما قال إليوت، وقفت قصيدته الأخيرة أمام الطاولة وقالت له: اسمع يا كمال ستموت حالما تنتهي من كتابتي، فردّ عليها: حسناً.. هل سيتبعني أحد المخبرين؟ أبداً، لا أحد ومع ذلك يجب عليك ان تحتاط، كان يبتسم ويقول في سرّه.. لعلها تفكر بالسهولة التي ستقبض بها على الشاعر في أقصى لحظة من لحظات التجلي، أما كان الأجدر بنا أن نموت معاً.

أنت حكيم المدن الآن... أتعرف ذلك؟

الحياة يليها الموت ولكن المنفى معراج دائم .. والذي يعرف الموت لا يخشى الموت، وهذه المعرفة ليست غاية في ذاتها.. انها مناورة شعريةمحضة على غرار الشاعر الهارب صوب القصيدة، أعرف أنك ستضحك لذلك بطريقتك المجلجلة. هكذا ها ها ها..

كمال سبتي الشاعر البعيد والغريب في الجنوب الهولندي.. هل تجرأ على وضع حد لمتاته المتكررة بعد أن عاش حياة النفي والمنفى؟

انه لا يحتاج في هذه الوقفة الى تعريف أو الى اعادة التذكير بمنجزه الشعري .. فهل اكتفى أخيراً بتسديد كلمات قصيدته الأخيرة الى زاوية حتفه وأنهى لوعة الشعر على كرسي الشعر وطاولة القصيدة مثلما فعلها الماغوط.

الشاعر المشرد بين مجد الشعر وحياء الشاعر.. هو اليوم (الشاعر شهيداً) تحت سماء غريبة، بعيداً عن سماء الوطن الملبّدة بالموت والخيانة.

ثمة شعراء أكلت قصائدهم ودواوينهم الشعرية الحروب.

آخرون انهاروا أمام شدقي صدام حسين وهو يلتهم قصائد اليمين واليسار.

ثمة شعراء يبحثون حتى اللحظة تحت سماء أوطانهم عن ملاذ آمن في بلاد فقدت ساقيها تحت علم الدولة (المحررة).

نظام رحل وآخر حلّ بالزي الامريكي.. من هنا سوف يدرك اللاحقون فاجعة الوهم وهم يبحثون عن نجمة الصباح في بلاد لا مكان فيها للنجوم، فهل سينتظر الشعراء العراقيون طويلاً أمام باب جهنم؟ من سيؤرّخ موتنا اللاحق بعد رحيل موتنا السابق؟ لربما سنتلاعب بالالفاظ مثلما فعلها ذات ديوان شعر صديقنا الشاعر عبد الرزاق الربيعي حين كتب: الحاقاً بالموت السابق، لكننا حتماً سنقرأ يوماً ما نبأ موتنا في صفحة من الصفحات.

هل سقط الشعر العراقي بين جدران بابل التي رممّها البابليون وأطاح بها اليانكيون؟

اليوم يا كمال.. أقف أمام موتك مفزوعاً على حلم كنت تريده للعراق وأندهش لملامستك أياه.. لحظة الموت.

أتحسر لعدم رؤية وجهك القريب من شاشة الكومبيوتر.

ألوذ بقصيدتي التي أهديتها لك ذات مساء من مساءات المنفى الثقيل.

وقائع هروب شاعر غامر صوب القصيدة التي لم تكتمل بعد .. كم كنت أتمنى أن تقرأ هذه القصيدة؟

بين موتك وصمتي أقول: عجبي للعراق!!

ماذا يفعل الشاعر في وطن مثقل بالحقائق المرعبة والرازح تحت هيمنة وتسلط الأنظمة المستبدة؟

اليوم ياكمال سبتي.. أدركت ما كنت تقوله لي عبر الهاتف: الشاعر يتغلغل في كل مسامات الحياة ويستولي في كل صباح على قصيدة جديدة ليكمل بناء برج أحلامه الشعرية، ومهما كان الشاعر معزولاً ومنعزلاً، مطروداً ومطارداً، منفياً ومُغتالاً.. سيجد نفسه دوماً مطالباً بتفسير كل ما يحدث له ولبلاده بالشعر، هذا هو الرهان الأشد عسراً باثبات شرعية القصيدة بعد أن تهاوت الأحلام.

الموت يا كمال.. في هذا الكون متعدد وهو عصي على الفهم.

الشعر يا صديقي شأنه شأن الحياة، ولكن متى ينتصر على الموت؟ ومنْ الذي سيجعله ينتصر.. الشاعر أم موته؟

لقد قرأت مرة أن الشعر انتصر في آخر المطاف على الحقد من خلال قصيدة كتبها (الأنباري) والتي يرثي بها الوزير (ابن بقية) عندما قتله (عضد الدولة) والتي مطلعها:

علو في الحياة وفي الممات
لحق تلك احدى المعجزات

ولكن لم أسمع أن الشعر انتصر على الموت.. والسياب ماثلٌ أمامنا منذ قصيدة (حفار القبور)، واذا كان ثمة من لا يزال يكتب الشعر، هل يستطيع الوقوف أمام الموت، وإن لم يستطع فليشتمه .. بكرة وأصيلا.. ترى هل سيسمعني:

اسامة العقيلي، مفيد البلداوي، سليمان جوني، نصيف الناصري، ستار موزان، اسامة عبدالرزاق، جواد الحطاب، حسب الشيخ جعفر، صلاح حسن، سعدي يوسف، صفاء ذياب، سعد جاسم، جمال كريم، كريم شغيدل، وسام هاشم، هادي القزويني، سعدي شياع، هادي الحسيني، رياض وابراهيم سبتي، زعيم الطائي، حسين حسن، عباس الحربي وآخرون في الذاكرة...

يا كمال...
يا حكيم المدن
قبالة بريد موتاك العاجل
تجاه آخر مدنك المقدسة
ازاء آخرين غيرك ماتوا قبل هذا الوقت
بنقاوة وردة البحر
من اجل ظل شيء ما
لأنني ثمل بومضات .. الخمريات الأربع
في متحف بقايا الأصدقاء الجحودين
لا أقول صبراً لطبائع الموت المجحفة
أقف مندهشاً لبقائي على قيد الحياة
و نابحاً ككلب لموتك المدوي

بت أعتقد يا صديقي أو هذا ما أوحت به القصيدة أن للشعراء شأناً في صنع المعجزات ... ألم يقل الفرنسي جان راسين ذات مرة: ان الشعراء يزعمون أنهم أنبياء.

نامي أيتها الروح
لكن بسلام هذه المرة.

كمال سبتي... القصيدة ترمي قوافلها أمام عتبة دارك عن حالات الشاعر ووصفه

الحالة الأولى

يداك وهما تمسكان القلم
خيمتان تظللان القصيدة

الحالة الثانية

روحك العائمة في الفضاء
قبرةٌ تضيء البياض بالكلمات

الحالة الثالثة

لاتقل لي ضاقت الكلمات
ستأتي القصيدة بقوافل منها
وترميها امام عتبة دارك

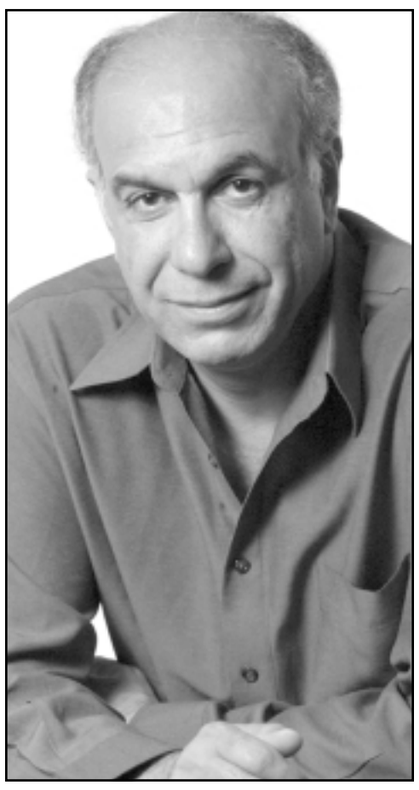

كمال سبتي (القدس العربي)

الحالة الرابعة

أتساءل ...
كيف تغدو القصيدة مثل البيت
والوطن النائي شعراً

الحالة الخامسة

شهقة واحدة
هي القصيدة
ويندثر العالم

الحالة السادسة

كل مساء
تتدحرج القصيدة
والشرفة خالية
ما أحلى الشرفة
وما أدهى القصيدة

الحالة السابعة

تتربص القصيدة بالشاعر
يتربص الشاعر بالكلمات
يمد الشاعر كفاً
تمد القصيدة ناباً

في وصف الشاعر

وحدهُ كان هناك
الشاعر المنزوي
يكتبُ قصيدته الأثيرة
ويزين كلماتها بالظلال
ينتظرُ شيئاً لن يراه
يتبدد داخل غرفته المعتمة
ملتحفاً النوافذ المطفأة
حين ...
يدخلُ خلسة حيث لا أحد في البيت سوى الشعر
يشطبُ ظنونه ببداهة طفل
مردداً...
ما أجمل المتعة بالخيال
هل لك أيتها القصيدة أن تكتبيني؟
كي أشرع لدفء الكلام شساعتي
وأطفي جذوة القلق
نمل أسود
حذر غريب
وانسجام متنافر
يعطي روحه للشعر
أشاعرٌ أنت؟
ام طفلٌ يعبثُ بالألوان؟
هكذا تستقبلني القصيدة
بحذرها الغريب
وهي تستعرض كلماتها المرصوفة بأناقة النمل
نقشر الكلمات معاً
لنزرع المخيلة
لا سلام في الشعر
لأن زيت القصيدة متهم بالاحتراق
وهكذا إذن أيها الشاعر
يتشكل ازاء مفرداتك
الحلم والوهم معاً
لا تحاول الاختباء
فكلما اشتد أوار القصيدة
وانحسرت في روحك الكلمات
غاص الغياب
بحروف أخرى
تتهجى حقلاً غريباً من المعنى
لست معنياً بالبداهة
لكنك مرصود بها
اذ ينبغي لك أن تكتب هذا العمر البخس
كما تشتهي
لا كما يشتهون
مُرّة في الغياب
وقارسة في الحنين
ومع هذا ففي القصيدة متسع لهدهدة الطفولة
حين يتكور العالم بين يديك
أيها الشاعر
دائماً...
أستلُ من مصابيح المفردات
ضوءاً ناصعاً
فينفلت الحلم على هامش النوم
ناعماً ودوداً
ثم يرتبك ازائي
محاولاً الاختباء ازائك
بعين القصيدة الأثيرة
أو في الشعر
لا فرق

23 نيسان (ابريل) 2006
مدينة شتوتغارت الألمانية

* شاعر من العراق يقيم في المانيا